الصديق الذي عز

يرتاح الناس في أيامنا هذه إلى الصديق يمتدحهم، وإلى الصديق يحقق لهم المصالح الشخصية، وإلى الصديق يسليهم. وينفرون من الأصدقاء الناصحين لهم وإن عز في زماننا هذا الصديق الناصح لصديقه.

يقول الإمام أحمد بن قدامة المقدسي في كتابه مختصر منهاج القاصدين (وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب ابغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا) انتهى كلامه. وقد كان هذا في القرن الثامن الهجري، أما في عصرنا الحاضر فقلما تجد الصديق الذي يهدى اليك عيوبك، وندر من الناس من يفرح بصديق يعينه على عمل البر وتجنب الشر، بل قد يصل الأمر إلى أكثر من البغض الذي تحدث عنه ابن قدامة في عصره.

نضرب مثالاً يبين مدى خطورة مثل هذه الصداقات القائمة على السكوت على الخطأ والمجاملة، في المواقع التي تتطلب المصارحة، فكيف يقوّم المرء موقف صديق له يراه يكاد يسقط في هاوية وهو ينظر إليه باسماً، يكيل له المديح ويجاذبه أحلى الحديث، لاينبهه إلى الخطر المحدق به، لا شك أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يحدث في الواقع العملي وإلا لما أمكن تسمية هذا الشخص بالصديق بل هو العدو اللدود. ولكن الذي يحدث في الحياة العملية أن الصديق قد يرى خطورة الأخطاء الجسيمة أو العيوب الكبيرة عند صديقه ولكنه لا يعطيها الأهمية المطلوبة، وإن كانت تشبه من الناحية المعنوية السقوط

في هاوية سحيقة، يخشى أن تسوء العلاقة بينه وبين ذلك الصديق فيؤثر السكوت على النصح فما افظع الصديق الذي يرى صديقه يظلم الناس ومع ذلك لا يأخذ على يديه أو يعينه على التخلص من ظلمه للناس، بل ربما زين له ذلك الظلم وابدى إعجابه به، ليدخل السرور عليه، وهو يؤدي به إلى الظلمات والهلاك، في الأحاديث الصحيحة أن الظلم لظلمات، ودعوة المظلوم لاترد، وقديماً كنا نسمع من أجدادنا (رحم الله من أبكاني وأبكى الناس عليّ ولا رحم الله من أضحكني وأضحك الناس عليّ).

وقد أولى القرآن الكريم والحديث الشريف قضية الصديق والخليل أهمية بالغة، لمالها من أثر كبير على حياة الناس في الدنيا والآخرة ولايسع المجال هنا إلا لإشارات بسيطة، فمما جاء في القرآن الكريم ﴿**الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتّقين**﴾(١).

ومما أثر عن رسول الله ﷺ ذلك المثال العظيم المعروف عن الجليس الصالح والجليس السوء كبائع العطر ونافخ الكير الذي قد يحرق ثيابك أو تصيبك منه ريح خبيثة، وربما كان بعض الأصدقاء اليوم أخطر على اصدقائهم من نافخ الكير فقد لايحرقون ثيابهم فقط، بل يسيرون بهم إلى الجحيم والعياذ بالله، ومع ذلك فهم مسرورون بهم فرحون بجلساتهم مغتبطون بصحبتهم، قال رسول الله ﷺ (إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة)(٢).

(١) الزخرف ـ ٦٧.

(٢) رياض الصالحين باب زيارة أهل الخير ص ١٧١ ـ متفق عليه (طبعة جديدة ومنقحة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢).

ومن أكثر ما يبين ضرورة الحرص على الصديق الناصح وأهمية الصاحب الذي يدل الإنسان على عيوبه، ويرشده إلى أخطائه، أن العصر الذي نعيشه اختلط فيه الحابل بالنابل، ولم تعد معالم الأمور فيه واضحة من كثرة الخطوب والنوازل، وأصبح من الصعب على الإنسان أن يجد الخليل الذي يركن إليه فيجد عنده المشورة النافعة والصحبة الصالحة، بعيداً عن النفاق والمداهنة لاتأخذه في الحق لومة لائم، فمن وجد هذا النوع من الأصدقاء، في أيامنا هذه فليعض عليه بالنواجذ وصدق رسول الله ﷺ (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)(٣)

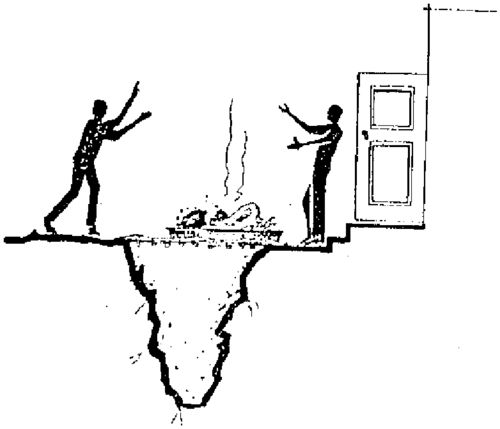

(٣) الإمام أحمد ٢/٣٠٣، ٣٣٤ ـ الترمذي ٣/٢٧٨ ـ أبو داود ٤/٣٥٩.